مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2020
ص: 297 - 311 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

هوية النص الأدبي من منظور المنهج النقدي التاريخي

The Identity of the literary Text from the Perspective of the Historical Critical Approach

قنون أمينة *

Guenoun Amina

جامعة أبي بكر بلقايد ،تلمسان

University of Tlemcen- Algeria

am_gue@yahoo.com

تاريخ الإرسال:2019/09/11	تاريخ القبول2019/12/22	تاريخ النشر : 2020/03/15

ملخص البحث

يتطرق هذا البحث إلى ماهية المنهج التاريخي وأسسه العلميّة في الدراسات النقدية الحديثة ،الّتي تطوّرت فيها القراءات واختلفت باختلاف المنهج نفسه ،أين صار الناقد يطرق الإبداع من أبواب كثيرة ،ويفسره من زوايا عدّة باستعمال ما توّفر أمامه من وسائل وإجراءات تضبط خطته النقديّة وتحقق له الغاية المبتغاة منه .

ولعلّ هذا أهم ما سعت إليه هذه الدراسة من خلال الوقوف على رؤية المنهج النّقدية ،وتحديد أبرز خطواته ومميّزاته وبياناته العامّة والمعتمدة في درس النصوص الأدبيّة.

الكلمات المفتاح: منهج تاريخي ،نص أدبي ، قراءة ، نقد حديث

Abstract :

This research deals with the historical method and its scientific basis in modern critical studies, in which the readings have evolved and differentiated in the same way, where the critic has come to open many doors of creativity where heexplains it from many angles using the means and procedures available to control its critical plan and achieve its desired goal. This is perhaps the most important thing this study seeks by examining the critical view of the curriculum and identifying the most important steps, characteristics and general statements adopted in the study of literary texts.

Keywords: Historical Curriculum, Literary Text, Reading, Modern Criticism.

* قنون أمينة am_gue@yahoo.com

تمهيد:

نتج حديثا عن صلة النقد الأدبي وتوطد علاقته مع العلوم الإنسانية والعلمية البحتة مجموعة من المناهج النقدية التي تتناول كل واحدة منها الإبداع من زاوية مختلفة عن الأخرى ،باعتبار أنّ لكل منها أسسا علمية وأدوات وإجراءات خاصة تميّزها.

ولعلّ النقد السياقي وجه من أوجه هذا التطوّر الذي سعى إلى تفسير العمل الفني والأدبي خاصة ،وهو يضم مجموعة من المناهج التي تقف عند السياق الاجتماعي ،والنّفسي والتاريخي .هذا الأخير الذي هو أساس بحثنا وموضوعه .

وعليه ما هو المنهج التاريخي ،وماهيته؟ ،وما هي أهم أسسه ووسائله وأدواته في فهم الأدب ومقاربته ؟

وإلى أيّ مدى يحقق المنهج التاريخي الغاية النقدية في قراءته للإبداع ؟

أوّلاً: المنـــــهج:

1-التعريف:

يعرف غالبا على أنّه«الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ،بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة[1] » .

ويعرف أيضًا على أنّه «طريقة التعامل مع الظاهرة الأدبية ،وهو يعتمد أساسًا نظرية ذات أبعاد فلسفية وفكرية ،ويشترط في المنهج أن يحدد أدواته الإجرائية بدقة ووضوح ليتكمن من تعليل الظاهرة المدروسة ،وبهذا المعنى فإنّ المنهج هو رابط كلّ يحكم دراسة الظاهرة من بدايتها إلى نهايتها والمنهج يقوم وسيطا جدليا بين النظرية والإجراءات ،بين النظرية كنسق شامل متكامل من المفاهيم المجردة لتفسير الظاهرة والتنبؤ بحركيتها ،وبين الإجراءات كأدوات ملموسة لتفكيك الظاهرة وتحليلها للوصول إلى خصائصها الأسلوبية والجمالية وتحديد وظائفها الدلالية ،ولابدّ للمنهج أن يكون قادراً على تحويل المفاهيم النظرية إلى مستوى التطبيق فيطوعها إلى التعامل مع الظواهر الأسلوبيّة وأبعادها الدلالية ،وبذلك يضمن تحقق العلاقة الجدلية بين النظرية والممارسة[2] » ، وبالتالي كان المنهج طريقة ووسيلة يعتمدها الناقد ويتبعها في دراسة نصوصه وسبر أغوارها ،موظفا مجموعة من الوسائل والأدوات والإجراءات التي تساعده في قراءة الأدب والوقوف على

عتباته ،مما يبين تلك أهميته الكبيرة لدى الناقد في عمله ،وضرورته في فهم النصوص عمومًا«تكتسي المناهج أهمية بالغة في الدراسات الأدبية باعتبارها طرقا وأساليبا يتناول الناقد في ضوئها الأعمال الإبداعية ،ويتحكم بفضلها في الدراسة ،ويوجهها الوجهة التي تحقق غايته ،وتقضي به إلى استخلاص النتائج بشكل جيد ،وكيفية مقنعة ،وذلك ما جعل بعض النقاد يلحون على حتمية اختيار المنهج المناسب قبل الشروع في العملية النقدية ،لأنّ ذلك يعصم الناقد من عشوائية مضرّة ويجعل دراسته موضوعيّة [3]».

ثانيًا :المنهج في الدراسات النقدية الحديثة وإشكالية تعدد المصطلحات:

لعلّ اعتماد النقاد خاصة حديثا على المناهج في عملياتهم النقدية وفي ممارساتهم لم يخل من بعض الاختلافات والتباينات ،التي ترجع أساسا إلى مصطلح المنهج نفسه ؛بسبب ما خلقه من إشكالية في الحقل الأدبي عامة بداية من قضية ضبطه أو تعريبه أو اشتقاقه أو ترجمته ثم أخيراً توحيده.

هذا الأخير الذي لم يكن ولم يتحقق حتى يومنا بسبب تفرد كل ناقد في تلك الاجتهادات مما خلق لنا فوضى مصطلحية وطرح ما يعرف حديثا باسم التعددية المصطلحية ؛«خلق المنهج أزمة للنقد في محاولة ضبطه وتقديمه للمتلقي ،وخاصة أنّ النقاد غالبا ما يقدمون المصطلح من خلال نظرتهم الذاتية كاجتهاد خاص ،دونما مرجع أو عودة للمصطلح الغربي [4]».

كذلك ممّا عمق من إشكالية المصطلحات هو فكرة أنّ لكل منهج مصطلحات خاصة تناسبه دون غيره من المناهج«لكلّ منهج مصطلحات تعدّ بمثابة المفاتيح التي تمكن من فتح المغلق منها لفهمها فهما صحيحا ،وأنّ أي زيغ في فهم المصطلح يؤدي بالضرورة إلى خلط وابتعاد عن الجوهر الذي يفضى إليه المنهج في أبعاده المعرفية والتي من أجلها ظهر إلى الوجود[5]».

من هذا يتّضح أنّ «الحديث عن المنهج يقتضي الحديث عن المصطلح النقدي أيضا، فهما متلازمان ، بينهما علاقة وثيقة لا يمكن قطعها [6]» ،لأنّ كلاّ منهما يستدعي الآخر في الممارسات التطبيقية بشكل أو بآخر فهما«وجهان لورقة واحدة ،ولا يحسن الحديث عن أحدهما بمعزل عن الآخر فكل منهما شاهد على وجود الآخر وباعث على ظهوره ،وبهذا فإنّه لا يعتبر تقرب أحدهما من الآخر تقربا يوحي بالاستجداء أو الأخذ دون عطاء ،وإنّما هو تقارب يقوم على أساس وجود المصلحة المشتركة التي تفرض فيما بينهما نوعا من التكامل[7]».

يبقى المنهج رغم هذه الإشكالية وسيلة وطريقة لقراءة العمل الإبداعي بغية تحقيق غاية ما من ذلك ،فهو« وبشكل عام يرتبط بمفهومين : مفهوم عام ومفهوم خاص؛ فالمفهوم العام يرتبط بطبيعة الفكر النقدي ذاته في العلوم الإنسانية، هذا الفكر النقدي الذي لا يقبل القضايا على علاّتها انطلاقا من شيوعها، بل إنه يختبرها، ويدلل عليها بالوسائل التي تؤدي إلى التأكد من سلامتها وصحتها .أما المعنى الخاص فهو الذي يتعلق بالدراسة الأدبية، وبطرق معالجة القضايا الأدبية، والنظر في مظاهر الإبداع الأدبي بأشكاله المختلفة [8]».

ثالثًا: النقد السياقي حديثا:

النقد السياقي هو قراءة الظاهرة الأدبية بعيدا عن بنيات النص الداخلية وبالتالي الاهتمام بظروفه التي نشأ فيها ،والعوامل التي رافقت ذلك سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو ميثويدينية ،فالسلطة في هذا النوع من القراءات تكون«السلطة فيها للمؤلف[9]» ؛لأنّه «عمدتها في الرؤية والتحليل ومحورها الأساس في التفسير[10]».

فالمبدع في منظور هذه القراءات السياقية بمناهجها المختلفة له «سلطة شاملة حتى غدا فيها النّص الأدبي مجرّد تصوير وتثبيت لحياة المبدع النّفسية والاجتماعية .فلا قيمة للنص إذن ما لم يعبر عن موقف المبدع من العالم ،أو لم يعبر عن آمال وطموحات وهموم طبقة اجتماعية محدّدة .فالنص الإبداعي هو مجرد صياغة باللغة لتجربة شخصية أو جماعية عميقة [11]».

رابعا: مناهج النقد السياقي واتجاهاته:

إنّ المناهج النقدية في العصر الحديث كانت لها إرهاصات ومرجعيات ساهمت في تكونها وتبلورها على النحو الذي هي عليه اليوم ؛«إنّ هذه المناهج لم تنشأ من فراغ وإنّما لها آليات ومراحل مكّنت لها من بسط نفوذها على الأدب[12]» ،فهي في «جوهرها تعبير عن نزوع علمي ومعرفي وتعبير عن تطلع إلى الحديث ،فإنّ عشرات النقاد المنتشرين في الوطن العربي قد مثلوا الانعطافة إلى الاتجاهات الجديدة من خلال سعيهم إلى تأصيل المناهج النقدية طلبا للموضوعية ،والعلم والتقليدية ،بمعنى إدراج النقد ضمن تقاليده الأدبيّة والنقديّة ،والتأصيل يعني في الوقت نفسه استنهاض الأصول والاستمرار في السعي المشترك لتحديثها [13]» .

إنّ مثل هذا الكلام ينطبق على ما ظهر اليوم من مناهج حديثة على اختلاف أسسها ووسائلها وأدواتها الإجرائية سواء كانت تتناول النص وبنياته وتقف على عتباته ،أو تتناول الإبداع انطلاقا

من مبدعه وظروفه وبيئته ونفسيته في تفسير أي ظاهرة أدبيّة كانت ،بطريقة ممنهجة تقوم على أسس وقواعد ولها من الإجراءات ما لها في الممارسات التطبيقيّة ،كما هو الحال في القراءة النقدية السياقية التي هي مرادف بشكل ما لما يسمى بالنقد الجديد«ليس النقد السياقي في أساسه سوى تسمية أخرى لما يعرف بالنقد الجديد في الولايات المتحدة خاصة ،أي النقد الشكلاني الداعي إلى قراءة النص وتحليله بمعزل عن أية عناصر خارجية ومن ضمنها النصوص الأخرى .

ولكن تبلور النقد السياقي في كتابات الناقد الأمريكي مري كريغر Murray Kreiger يشير إلى نوع من الانعطاف نحو مناهج نقدية ظهرت بعد النقد الجديد ،أي إلى محاولة توفيق بين التوجه الشكلاني المتمثل بالنقد الجديد وما ظهر بعده ،خاصة النقد الظاهراتي أو الفينومينولوجي ،والنقد الوجودي .ففي بعض كتابات كريغر كما في مقالتيه :"الأساس الوجودي للنقد السياقي" و"التأمل ،اللغة والرؤية في قراءة الأدب" يتضح أن المسعى الأساسي لدى النقاد الجدد مثل جون كراو رانسوم John Crawe Ransom وكليانث بروكس Cleanth Brooks،كان رومنطيقيا في أساسه من حيث هو ينتصر للخيال الإنساني ضد المد التقني العلمي بعقلانيته الصارمة .وهذا المنحى الإنساني هو ما يربط النقاد الجدد كما يقول كريغر بالظاهراتيين وغيرهم من ممّن دعوا إلى نقد إنساني يهتم بتناول النصوص مستشعرًا كونه تجربةً ذاتيةً أو معايشةً بين الذات من جهة وما تصوره النصوص الأدبية عبر اللغة ،التي تتحول بدورها إلى وجود شفاف[14]».

إنّ كل المناهج السياقية نشأت في رحاب مدرسة فلسفية بعينها وانبثقت عنها[15] .فالمناهج النقدية المعاصرة التي تسود اليوم ساحة الدرس الأدبي ،وتمثل انعكاسا لإيديولوجيات وفلسفات مختلفة ،وهي نتاج حضارة أخرى وهي موضوعة لدراسة أدب آخر .إنها مناهج غربية نبعت واستقرئت من الأدب الغربي[16].

وأمام هذا التأثر والاستيراد المنهجي وجد الناقد الأدبي نفسه أمام كم من المناهج كل واحد يدرس الإبداع من زاوية ما ؛«إنّ اختيار الناقد نفسه لمنهج دون آخر ما هو إلاّ تعبير عن فلسفته وعقليته واتجاهه وذوقه ،ولعلّ هذا هو الذّي يحمله عندئذٍ على التركيز على جانب دون جانب[17]».

هذا ويندرج ضمن هذه القراءة السياقية التي –«تسعى إلى إعادة نتاج دلالة العالم النصي مظهرة حركة النشاط اللغوي المؤسس على تفاعل تحتكم إليه العناصر اللغوية في تراسلها المرجعي ،ويقام تحليل الأفق الاجتماعي للنص على تنظيم أشكال المتخيل الذهني بما يكشف العالم المرجعي

المسئول عن النسق الثقافي الذي يعتمد عليه النص [18]»-،مجموعة من المناهج التي تعنى بفهم الإبداع وقراءته بالنظر لسياقه التاريخي والاجتماعي والنفسي .

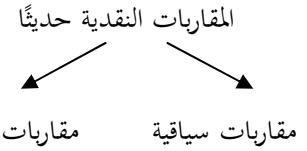

1.المنـهج التاريخي:

يعدّ المنهج التاريخي من المناهج التقليدية التي توصف في العادة أنّها تقارب النّص الأدبي من الخارج ،أي أنّها تهتّم بأصل النّص أكثر من اهتمامها بالنّص ذاته[19].

هو منهج يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمة ما ، مجموع الآراء التي قيلت في أديب ما أو في فن من الفنون[20]، فهو كمنهج يمكننا من تفسير تَشكل خصائص اتجاه أدبي ما ،ويعين على فهم البواعث والمؤثرات في نشأة الظواهر والتيارات الأدبية المرتبطة بالمجتمع ،انطلاقا من قاعدة الإنسان ابن بيئته[21].

كان تين Taine يرى أن« الإنسان هو غاية الأنواع الراقية في الحيوانية ،وأنّه لهذا التفوّق ولهذه المميزات التي اختص بها يستطيع أن ينتج فلسفة وأدباء ،وإذا جاز لنا أن نقارنه بنوع آخر من أنواع الحيوانات قلنا إنه يشبه دودة القز ويشبه النحلة .فدود القز ينتج الحرير ،والنحل يصنع الخلية ويخرج العسل .وهذا الإنتاج هنا أو هناك يتوقف على شروط حيوية لا يوجد إذا تحققت فمتى وجد دود القز شجرة التوت تغذى منها ،ثم يأخذ في التحول المعروف حتى ينتج الحرير ومتى كانت هناك حديقة ونحل كان هناك خلية وعسل [22]» ،يتّضح من هذا الكلام أنّ تين يتتبع تاريخ الإنتاج وظروفه التي نشأ أو صنع فيها ،ومما لا شك فيه أنّ هذا يؤكد انتماءه الذي يعرف عند أغلبية الباحثين فتين من «مدرسة* شغلت نفسها بتفسير الآثار الأدبية في ضوء ظروفها التاريخية [23]». وهذا هو جوهر وأساس المنهج التاريخي الّذي وصفه البعض بأنّه«يتّكئ على ما يشبه سلسلة من المعادلات السببية فالنص ثمرة صاحبه والأديب صورة لثقافته ،والثقافة إفراز للبيئة ،والبيئة جزء من التاريخ ،فإذا النقد تأريخ للأديب من خلال بيئته[24]» ،فالنقد التاريخي هو الوحيد دون غيره الذي يمكّن النّاقد من تتبع المسار التاريخي للظاهرة وتتبع تطورها«هو المنهج الوحيد

الذي يمكننا من دراسة المسار الأدبي لأي أمة من الأمم ،ويمكننا من التعرف على ما يتميّز به أدبها من خصائص [25]».

2.جذور المنهج التاريخي في الحقل الأدبي النقدي :

عُرف المنهج التاريخي عند الباحثين ولا يزال كذلك باسم النظرية المدرسية«ويسميه العلماء بالنّظرية المدرسية لأنّه منهج يرتبط بدروس التّاريخ وبتطورات الأحداث التاريخية وتفاعل الأدب فيها [26]» هذا من جهة ،ومن جهة أخرى أيضا لأنّ«التّاريخ مادّة هامة من مواد الأدب ،وباعث من أهم بواعثه ،ولولا التّاريخ وأحداثه المتعاقبة ،ما وجد هذا الشعر السياسي في القرن الأول ،ولولا الظروف الاجتماعية ما شاع هذا الغزل العذري الذي أشرنا إليه في بيئة الحجاز ،وكذلك الهجاء الذي قام بين شعراء القبائل وقد أملته الحياة الاجتماعية والسياسية ،وأمدته بما أذكاه وأذاع صيته كما لم يسلم من القصص التاريخي والديني أيضا من دوافع سياسية واجتماعية شجعته ونهضت به[27]» ، أي لكل عمل وإبداع ظروف مختلفة ساهمت في تكوّنه وولادته.

هذه النظرة الّتي كانت عن المنهج التاريخي ودوره في العمل النقدي ومساهمته إلى حدّ كبير في قراءة العمل الأدبي ، لم تكن وليدة اليوم فقط بل لها إرهاصات وجذور في النقد العربي والغربي أيضا.

أ- عُدّ في الغرب «النقد العلمي الذي ظهر أواخر القرن التاسع عشر شكلا مبكرا للنقد التاريخي [28]» ،فكانت آراء كلّ من هيبوليت تين HippolyteTaine وفرديناند برونتيير Ferdinand Brunetiére وسانت بيف Sainte-Beuve وغيرهم تؤسس بشكل أو بآخر لنقد تاريخي أو لمنهج تاريخي في النقد الأدبي.

ولعلّ هيبوليت تين H.Taineومثله سانت بيف S.Beuve عندما ذكر ثلاثية الجنس ،البيئة والزمن أو العصر ،أراد أن يبين ضرورة التاريخ في تفسير الإبداع ،فهو «فهم التاريخ من خلال الأثر الفني وما فيه من تطورات فكرية وأخلاقية ،فالآثار الأدبية عنده كالمناطق كل منها يحتاج إلى مناخ معين ،وأن النص الأدبي هو الذي يكشف العلاقات الإنسانية[29]» .

فأما البيئة فكان القصد منها«المكان الذي يحيط بالفرد فيؤثر فيه ومنه يكتسب ثقافته ونموّ تفكيره ،فهو ليس معزولا عن عالمه الخارجي بل مرتبط به ،وعلى هذا نشأ الاختلاف بين الأجناس[30]» ،والجنس هو« كل ما تعلق بالصفات والعوامل الوراثية التي تولد مع الإنسان وورثها الشخص من شعبه[31]».

وثالث عنصر في هذه الثلاثية كان الزمن أو ما عرف لدى البعض بالعصر ،وقصدوا به«الأحداث السياسية والاجتماعية المرتبطة بالزمن الذي يصاحب النص إبداع النص ومافيه من أفكار أولية تتأثر فيها الشعوب لمدة طويلة وتتضح أهمية الزمن إذا لم يقيّد بلحظة معيّنة[32]».

إنّ هؤلاء في هذه الفترة وعلى رأسهم سانت بيف عمل قدر المستطاع على« الغض عن الخصائص الفردية التي يتميز بها الأديب وجعلها خصائص جماعية ،بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك فأخضعوا الأدب والأديب لمقاييس الجنس والتّربية والبيئة والعادات والعرف والعصر[33]» ،فهو دعا إلى «دراسة الأدباء دراسة علميّة تقوم على بحوث تفصيليّة لعلاقاتهم بأوطانهم وأممهم ،وعصورهم وآبائهم وأمهاتهم وأسرهم وتربياتهم وأمزجتهم وثقافتهم وتكويناتهم الماديّة ،الجسميّة وخواصهم النفسية والعقلية وعلاقتهم بأصدقائهم ومعارفهم ،والتعرّف على كلّ ما يتصل بهم من عادات وأفكار ومبادئ مع محاولة تبين فترات نجاحهم وإخفاقهم وجوانب ضعفهم ،وكلّ ما اضطربوا فيه طوال حياتهم في الغدو والرواح وفي الصباح والمساء[34]».

إنّ المنهج التاريخي «في تعامله مع العمليّة الإبداعيّة (النص–المبدع–المتلقي) يعتمد على أنها واقعة تاريخية لها ظروفها وأسبابها ،وعلاقتها مع المحيط الذي ولدت فيه .فأصحاب هذا المنهج درسوا العملية الإبداعيّة ضمن إطارين :الإطار المكاني والزماني ،والنظر إليها كأنها وثيقة تختزن الظاهرة السياسية والاجتماعية والثقافية [35]»والتي يعدّها في ممارسته النقدية«وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره وخصائصه ، ويركز على تحقيق النصوص وتوثيقها باستحضار بيئة الأديب والشاعر وحياتهما[36]».

ب–أما النقد العربي عرف هذا المنهج منذ زمن طويل ليس بمعناه اللّفظي الحالي وإنّما بشكل آخر وهذا ما تظهره أعمالهم وكتاباتهم آنذاك:«يعدّ ابن سلام الجمحي أوّل من حاول تلك المحاولة في كتابه طبقات فحول الشعراء ،إذ سار فيه على نهج أقرب ما يكون إلى المنهج التاريخي ،حدد فيه أبعاد أصول منهجه في الزمان والمكان ،والإبداع الفني والإجادة فيه[37]» ،ومثله ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء الذي «يدرك فيه الأسس العلمية للمنهج التاريخي[38]» ،وغيرهم كثر كابن عبد ربه الأندلسي في "العقد الفريد" ،وأبو الفرج الأصفهاني في "الأغاني"[39] ،وابن خلدون في مقدمته..وغيرهم ممن اعتمدوا منهجا تاريخيا في مؤلفاتهم النقدية ممّا أبان عن دراية بأسس النقد التاريخي.

وحديثا عُرف بكل أدواته في نهايات الربع الأول من القرن العشرين ،وقد مثله عدد لا بأس به من النقاد في هذه الفترة مثل محمد مندور الذي أرسى معالم اللانسونية في النقد العربي من خلال كتابه النقد المنهجي عند العرب ،ومثله أحمد ضيف وطه حسين وزكي مبارك وأحمد أمين ،ثم شوقي ضيف وسهير القلماوي وعمر الدسوقي وشكري الفيصل[40] ...وآخرون .

فالنقاد العرب في هذه المرحلة تأثروا إلى حدّ كبير بما وفد إليهم ووصلهم من المناهج النقدية الحديثة من الغرب ؛«فالنقاد العرب تأثروا بالمنهج التاريخي الحديث وفي مقدمتهم طه حسين الذي كان شغوفا بالتاريخ شغفا يصل إلى حدّ الافتتان والهيام به ،ولقد عبّر عن ذلك بصريح اللّفظ في مؤلفاته .هذه الذائقة تبلورت في الجامعة المصرية ثم نضجت في جامعة السربون التي كانت تمثل له مرحلة انتقالية حاسمة في حياته الخاصة والعامة[41]».

وخلال المراحل المذكورة كان النص عبارة عن وثيقة تاريخية في ميزان الناقد ،فاهتم بظروفها السياسية والثقافية وببيئتها بشكل عام.

3.خصائص المنهج التاريخي في القراءات النقدية:

إنّ القراءة السياقية كما أسلفنا الذكر قراءة «تهتم بالعوامل المنتجة للعمل الأدبي المؤلف ،التاريخ ،المجتمع[42]» ،ولأنّها كذلك فمناهجها لن تخرج عن تلك الثلاثية المذكورة آنفا ،فهي الجوهر والأساس فيها.

ولعلّ المنهج التاريخي الّذي يركز على الجانب التاريخي للعمل الفني أو الأدبي ويتتبع سلسلة الأحداث والظروف التي ساعدت في ولادة ذلك النتاج الأدبي ،يعكس ما سبق قوله تماما .وهاهو الناقد إذ وظفه في فهم ذلك الإبداع سنجده يعتمد وسائل وأدوات منهجية تاريخية تبدأ بالإحاطة«بظروفه السياسية والحياتية والاجتماعية والاقتصادية لمعرفة مبعث وجود هذه الظاهرة في دراسة متأنية واعية لذلك العصر[43]» ، وهو بصدد القيام بذلك عليه أن يبتعد عن جملة المؤثرات التي تفسد عليه أحكامه...وأن يكون ذا ثقافة أدبية علمية بصيرًا بالأدب وفنونه وأطواره التاريخية وصلته بالفنون الأخرى ،ليتيسر له الإنصاف والحكم على العمل الأدبي..[44]»هذا من جهة ، ومن جهة أخرى عليه أيضا أن يكون على وعي بالمتغيرات البيئية في الأدب والأديب..ولهذه المتغيرات أثرها في اتجاهات الأديب وموضوعات الأدب وأفكاره وصوره وأخيلته ،إذ المعرفة الشاملة بعصر الأديب تساعد على التعرف إلى الاتجاهات العامة للأدب في مختلف عصوره[45]».

إذًا الناقد في اختياره للمنهج التاريخي لقراءة الأعمال الأدبية وفهم خباياها هو بصدد النظر لسياقها التاريخي العام ،ولظروف نشأتها وتطوّرها والمراحل التي رافقت ذلك ،وبالتالي كانت هذه الطريقة في دراسة النصوص منهجية «تتخذ من دراسة الحوادث التاريخية والاجتماعية والسياسية وسيلة لتفسير النص وتأويله ،وتعليل ظواهره وخصائصه ،بالتركيز على تحقيق النصوص وتوثيقها وقراءتها بزمانها ومكانها وحتى شخصياتها [46]».

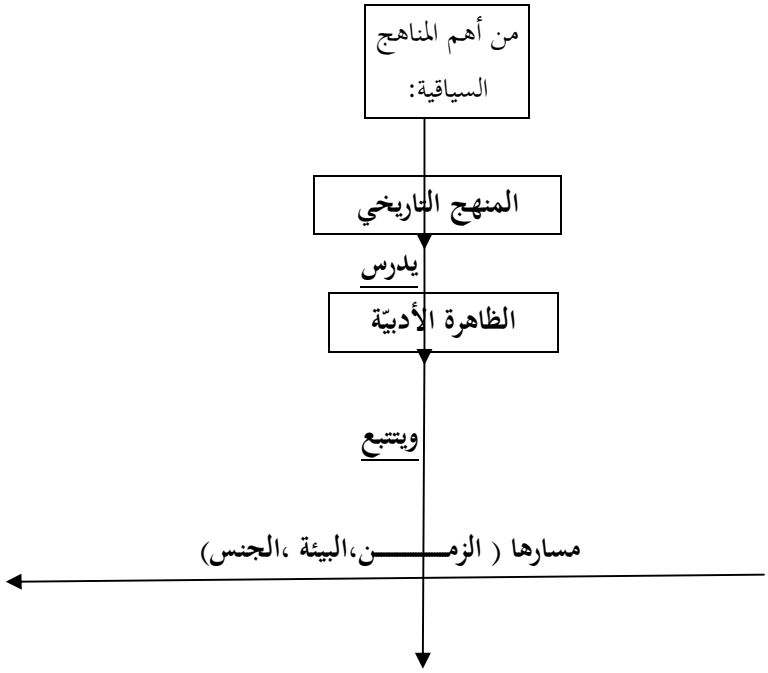

(مخطط توضيحي للمنهج التاريخي)

المخطط يوضح قراءة الظاهرة الأدبية في النقد الأدبي الحديث في ضوء المنهج التاريخي ،من خلال تتبّع الخط الزمني لها من الماضي إلى الحاضر ،وهذا يكشف إلى حد كبير أهميّة عنصر الزمان في الدراسات التاريخية في النقد الأدبي ،إضافة إلى عناصر أخرى كالبيئة والجنس أو ما يعرف بالعرق مثلاً .وهذا إن دلّ على أهمية ما فهو ليس إلاّ يؤكد «أنّ أبسط تعريف لتاريخ الأدب ،هو أن يقال أنّه دراسة الماضي الإنساني لفنّ الأدب» [47] ،مما يعني مراجعة تاريخه وقراءته لفهمه وفهم طبيعة ذلك المنتوج الأدبي ،يقول الناقد الإنجليزي Spiller «تاريخ الأدب أوّلاً وقبل كلّ شيء

وصف وتفسير أدب شعب من الشعوب في لحظة تاريخيّة محدّدة[48]» ،وعلى هذا الأساس يستخدم الناقد التاريخي المنهج لتفسير ووصف ماضي الظواهر الأدبيّة ،ويوضح كيف جاءت؟ ومتى ظهرت؟ [49]. فالناقد في ضوء المنهج التاريخي ينطلق من نقطة محددة فيبحث ويكتشف بغية الوصول إلى حقيقة ما ؛«المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية –بقدر المستطاع – ويقدّمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامّة[50]» .

وإنّه من أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الناقد حتى تتحقق غايته ويصل إليها ،والتي أشار إليها عديد الدارسين والباحثين كأساسيات في الناقد التاريخي أي الذي يفسر الظاهرة الأدبية وفق المنهج التاريخي وفي ضوئه ،نذكر:

1.سعة الاطلاع وثقافة الناقد الواسعة ،وإلمامه بكل ما يتعلق بظاهرته الأدبية.

2.دراية الناقد بالمصادر وأمهات المؤلفات ،وأهم الأخبار الخاصة بهذه الظاهرة التي يسعى لدراستها وتفسيرها كواقعة تاريخيّة.

3.تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه[51].

4.تحرّي نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها ،ونقدها نقدًا باطنيًّا إيجابيّا ،وسلبيًّا ،وإثبات الحقائق التاريخيّة ،وتنظيمها وتركيبها ،والاجتهاد فيها ،وتعليلها ،وإنشاء الصيغة التاريخيّة ،ثمّ عرضها عرضا تاريخيّا معقولاً[52].

5.ضرورة معرفة الحوادث التاريخية على اختلافها والتي لها علاقة بالظاهرة وتساهم كثيرا في عملية قراءتها وفهمها .«ولهذا السبب يجب على الباحث أو الناقد التاريخي ألا يقف عند حدود وصف الوقائع الأدبية في علاقاتها المتبادلة ،إنّما ينبغي عليه دراسة تلك الوقائع من خلال حركتها وتغيرها والنظر إليها على أنّها كل متماسك الأجزاء..بمعنى أن لا يصف الآثار الأدبيّة وتغير مصادرها دون ربطها بهذه المصادر ودون ربط هذه المصادر بالإطار الثقافي والاجتماعي ،فلا يمكن فهم الوقائع الأدبيّة إلاّ من خلال ارتباطها بالوقائع الأخرى ،حيث يتّصل زمان هذه الوقائع ويستمر ،ويفسر بشروط مستمدّة من ماضيها ،باعتبار أنّها خاضعة لصيرورة معيّنة»[53].

ممّا تقدم يظهر جليّا أمام الباحث أنّ المنهج التاريخي أولى عناية كبرى بالظروف الخارجية للإبداع ،فاهتمّ بمحيط المبدع وإبداعه وعصره وبيئته وجنسه وعرقه وكلّ الاستعدادات الفطرية الخاصة به أو الثقافية ،كما اهتم بالأمكنة والمناطق وبتحري مواقعها الجغرافيّة ،ونظر في العادات

وتقاليد الأمم وتتبّع أجواءهم الاجتماعية ،فكان النّاقد في ضوء هذا المنهج يعدّ النص الأدبي وثيقة تاريخية وسياسية وثقافية ،يعتمدها في تفسير العمليّة الإبداعية ويرجع إليها كمستند حقيقي وضروري في فحص وقراءة الإبداع ونقده.

وإنّه من هذا المنطلق كان الأدب في ضوء هذا المنهج تسجيلا لتاريخ الأدب ولكن في الحقيقة والتي تكشفها الممارسات النقدية خاصة الحديثة منها ،والمناهج المتعددة فإنّ«الأدب ليس دائمًا تسجيلاً للواقع المعيش أو الماضي ولكنّه كذلك تسجيل للآمال والأشواق المستقبليّة والرغبات المكنونة في النّفس الفرديّة أو الجماعيّة[54]» ،ما يعني أنّ للأدب زوايا أخرى يقرأ منها ويفسر ويفهم بها تتطرّق إلى جوانب مختلفة تتجاوز كون النصوص الأدبية مجرّد تسجيل لواقع ما.

– خاتمة:

بعد هذه الدراسة التي تضيء عن أهمية هذا المنهج في الدراسات النقدية الحديثة ،وفي تفسير الإبداع وقراءة النصوص الأدبية ،نخلص إلى جملة من النتائج نذكر منها:

–اهتمام المنهج التاريخي بتتبع تاريخ الظاهرة والرجوع إلى أصلها ،وهذا يؤدي إلى إهمال جوانب أخرى تتعلق بالظاهرة نفسها لطول الوقت الذي يقتضيه دراستها تاريخيا.

–قصور المنهج التاريخي في العملية النقدية الأدبية في حال اعتماده كمنهج وحيد فيها ،لعنايته بظاهر الإبداع وقراءته قراءة خارجية لا تعنى بالبنية وتغفلها كليّا.

– لا يمكن للنقاد اعتماده كمنهج وحيد وفردي في ممارساتهم والاستغناء عن المناهج الأخرى ،من منطلق أن ذلك سيحدث قصورا ونقصا في تلك الممارسات لأنّ«المنهج التاريخي لا يبلغ حدّ الكمال ،ولا حدّ الاكتفاء به والاستغناء عن غيره من المناهج [55]» .

–صعوبة الوصول إلى نتائج نهائية عند قراءة الأثر الأدبي في ضوء المنهج التاريخي ،لأنه يصعب على الناقد تقديم صورة نقدية مكتملة من منطلق أن الأحداث التاريخية يصعب الإلمام بها كلها وحصر كل الوثائق ،والاطلاع على كل الظروف التاريخية آنذاك.

–يدرس الناقد التاريخي الحقائق التاريخية ويعتمدها للوصول لتفسير هوية النص الأدبي ويغفل الحقائق النفسية والاجتماعية والميثيودينية وما شبه ذلك.

-لضمان نجاح المقاربة النقدية وحتى تؤتي نتائجا جيّدة لا بدّ من وجود منهج نقدي متكامل ، يقف على عتبات النص من أكثر من زاوية ويتطرق إلى خباياه على اختلافها ،بغية قراءة واعية للعمل الأدبي والفنّي عموما.

هوامـش:

[1]- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي،وكالة المطبوعات شارع فهد السالم ،الكويت ،ط:03 ،1977،ص:05

[2]-خالد بن شعيب ،الرواية الجزائرية بين الممارسة الإبداعية والتنظير النقدي ،أطروحة دكتوراه في النقد المعاصر ،جامعة وهران 1 –أحمد بن بلة- ،2017/2016 ،ص:170

[3]- المرجع نفسه ،ص:171

[4]- فاطمة سعدون ،المناهج النقدية :إشكالية التطبيق والوعي بالأصول، مجلة جسور المعرفة للتعليمية والدراسات اللغوية والأدبية ،حسيبة بن بوعلي الشلف ، Volume 2, numéro 7, ،ص:74

[5]- خالد بن شعيب ،الرواية الجزائرية بين الممارسة الإبداعية والتنظير النقدي،ص:171

[6]- عبد الحميد هيمة ،الخطاب النقدي بين النقل والتأصيل من خلال كتاب حداثة النص الشعري في المملكة العربية السعودية للدكتور عبد الله الفيفي ،مجلة مقاليد ، العدد الثاني ،ديسمبر 2012 ،ص:45

[7]- خالد بن شعيب ،المرجع السابق،ص:171

[8]- عبد الحميد هيمة ،المرجع السابق ،ص:41

[9]-عبد الحميد هيمة ،النص الشعري بين النقد السياقي والنسقي(قراءة في إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر)،الملتقى الدولي الأوّل في المصطلح النقدي ،جامعة قاصدي مرباح ، يومي 10/09 مارس 2011 ،ص:250

[10]-المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[11]-منير مهادي ،تنازع السلطة في المعادلة الإبداعية جدلية توليد المعنى ،مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ،جامعة سطيف2 ،عدد 06 /2014 ،ص:02

[12]- خالد بن شعيب ،المرجع السابق ،ص:174

[13]- المرجع نفسه ،ص:175/174

[14]- ميجان الرويلي وسعد البازغي ،دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحاً نقدياً معاصرًا ،المركز الثقافي العربي ،ط:03 ،2002 ،،ص:320

[15]–مسعودي باهية ومزيان ذهبية ،المناهج السياقية في الخطاب النقدي الجزائري الحديث ،ماستر تخصص:أدب جزائري، جامعة عبد الرحمن ميرة ،بجاية ،2014/2013 ،ص:20

[16]–وليد قصاب ،مناهج النقد الأدبي الحديث(رؤية إسلامية) ،دار الفكر ،دمشق ،ط:02 ، 1430 هـ/2009 م ،ص:22

[17]–المرجع نفسه ،ص:21

[18]– عبد الله عنبر، المناهج النقدية والنظريات النصية ،دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ،المجلد 37 ،العدد 01 ،2010 ،ص:97/96

[19]–وليد قصاب ،مناهج النقد الأدبي الحديث (رؤية إسلامية)،ص:23

[20]–يوسف وغليسي،مناهج النقد الأدبي(مفاهيمها وأسسها ،تاريخها وروادها وتطبيقاتها العربية ،جسور للنشر والتوزيـع الجزائر،ط:03 ،2010 ،ص:15

[21]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[22]–مصطفى السيوفي ومنى غيطاس ،النقد الأدبي الحديث ،الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ،القـاهرة–مصر، ط:01 ،2011/2010 ،ص:131

[23]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

*–تضم هذه المدرسة كلّا من ميشيليه MICHELET ، رينان RENAN، وسانت بيف SAINTE BEUVE

[24]–يوسف وغليسي،مناهج النقد الأدبي(مفاهيمها وأسسها تاريخها وروداها،وتطبيقاتها العربية)، ص:15

[25]–المرجع نفسه ،ص:16

[26]–مصطفى السيوفي ،المنهج العلمي في البحث الأدبي ،الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ،القاهرة – مصر،ط:01 ،2008 ،ص:167

[27]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[28]–يوسف وغليسي،مناهج النقد الأدبي(مفاهيمها وأسسها تاريخها وروداها،وتطبيقاتها العربية)،ص:16

[29]–عبد الكريم جديح نعمه النفاخ ، المنهج التاريخي أصوله وكيف انتقل إلى الأدب طه حسين ،مجلة أدب الكوفة ، ،Vol 1.N 12، 2012، ص:259

[30]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[31]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[32]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[33]–مصطفى السيوفي ،المنهج العلمي في البحث الأدبي ،ص:171

[34]–ثامر إبراهيم المصاروة ،المنهج التاريخي ،ديوان العرب(منبر حر للثقافة والفكر والأدب)،27 اذار(مارس) 2010، /الشابكة/.بتاريخ: 2019/03/06

http://www.diwanalarab.com/spip.php?article22663

[35]–المرجع نفسه.

[36]– المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[37]–المرجع نفسه ،ص:169

[38]–مصطفى السيوفي ، المرجع نفسه ،ص:170

[39]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[40]–يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي(مفاهيمها وأسسها تاريخها ورواداها،وتطبيقاتها العربية)،ص:20/19

[41]–عبد الكريم جديح نعمه النفاخ ،المنهج التاريخي أصوله وكيف انتقل إلى الأدب طه حسين ،ص:363/362

[42]–عبد الحميد هيمة ،النص الشعري بين النقد السياقي والنقد النسقي(قراءة في إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر ،مجلة مقاليد ،العدد الثاني ،ديسمبر 2011 ،ص:87

[43]– مصطفى السيوفي ،المنهج العلمي في البحث الأدبي ،ص:172

[44]– المرجع نفسه ،ص:172

[45]– المرجع نفسه ،ص:174

[46]– خنوس نور الدين،الخلفية الاستشراقية لمنهج النقد التاريخي للنص الديني عند محمد أركون،مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ،جامعة قاصدي مرباح ورقلة ،العدد 21 ،ديسمبر 2015 ،ص:157

[47]– سمير حجازي،مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر مع ملحق قاموس المصطلحات الأدبية ،دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع ، ط:01 ،2004 ،ص:125

[48]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[49]–المرجع نفسه ،ص:127

[50]–حسن عثمان ،منهج البحث التاريخي ،دار المعارف ،القاهرة ،ط:08 ،ص:20

[51]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[52]–المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

[53]–سمير حجازي ،المرجع السابق ،ص:127، 128

[54]–ثامر إبراهيم المصاروة ،المرجع السابق

[55]–مصطفى السيوفي ،المنهج العلمي في البحث الأدبي ،ص:168